المبحث الأول

المناسبة بين التقديم والتأخير والسياق اللغوي

التقديم من (قدَّم) أي: وضعه أمام غيره، والتأخير نقيض ذلك[1].

يعد أسلوب التقديم والتأخير من أبرز وأهم الظواهر اللغوية والبلاغية في لغة العرب، إذ إنّ من سنن العرب «تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخراً وتأخيره وهو في المعنى مقدّم»[2]. إنّ ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تناولها النحويون القدماء فكان سيبويه (ت١٨٠هـ) أول من اعتنى بالتقديم والتأخير وأشار إلى دلالات بلاغية كتقديم الفاعل والمفعول للعناية والاهتمام[3].

وتابع النحاة واللغويون سيبويه في آرائه كالمبرد (ت٢٨٥هـ) وابن جني (ت٢٩٣هـ) الذي تفرّد في مناقشته لهذه الظاهرة بينما تميز الفراء (ت٢٠٧هـ) والأخفش (ت٢١٥هـ) في نصهما على مواضع التقديم والتأخير من نوع تقديم اللفظ والتأخير في المعنى إلى أنّ وصل البحث إلى الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي درس الظاهرة -مفيداً من سيبويه- دراسة دقيقة مفصّلة، وقدّم دراسته على وفق منهج علمي دقيق فقال فيه: «باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرّف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدّم فيه شيء،

---

(١) لسان العرب: مادة (قدم) و(أخر).

(٢) المزهر: ٣٣٨/١.

(٣) ينظر: الكتاب: ١٢٧/٢-١٢٨.

وحول اللفظ من مكان إلى مكان»[1].

ولا يكون التقديم والتأخير في اللغة العربية من دون نظام يحكمه، بل يخضع لضوابط وقيود، فقد يكون تقديم اللفظ أو تأخيره إجباريّاً لعلة نحوية، فلا يجوز الرجوع عنه إلى الأصل، وحينئذٍ يخرج من مباحث البلاغة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[2]، فقدّم المفعول تقديماً إجباريّاً لاتصال ضمير بالفاعل يعود عليه.

وقد يكون اختياريّاً، فيخضع -ولاسيما في الكلام البليغ- لدواعٍ دلالية أو بلاغية، وأشار إلى ذلك أبو هلال بقوله: «ينبغي أن ترتّب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فنقدم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره. ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق»[3].

ويقول التنوخي: «ومن البيان تقديم ما من شأنه أن يؤخر، وتأخير ما من شأنه أن يقدّم، ومعظم هذا من أبواب النحو، ومن ذلك ما يلزم وما يجوز، فأما ما يلزم فلا مدخل له في البيان، إذ لا يمكن غيره، وما يجوز فلا يقدم عليه دون غيره إلاّ لغرض من أغراض البيان، وإن جاء شيء منه لغير غرض جاء قبيحاً، ولا يقع إلاّ شاذّاً»[4].

وتتعدد الأسباب التي يقدم اللفظ من أجلها أو يؤخر عند العلماء،

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٠٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) الصناعتين: ١٦٩.

(٤) الأقصى القريب في علم البيان: ٥٣.

فأرجع سيبويه الأمر إلى الاهتمام أو العناية[1]، أي: اهتمام المتكلم وعنايته باللفظ المتقدم، وأرجعه الزمخشري إلى الاختصاص[2].

وقال السيوطي: «فإنّ الابتداء بالشيء يدل على الاهتمام به، وأنّه هو الأرجح في غرض المتكلم، فإذا قلت: زيداً ضربت، علم أنّ خصوص الضرب على زيد هو المقصود، ولاشك أنّ كلّ مركب من خاص وعام له جهتان، فقد يقصد من جهة عمومه، وقد يقصد من جهة خصوصه والثاني هو الاختصاص، وأنّه هو الأهم عند المتكلم، وهو الذي قصد إفادته السامع من غير تعرّض، ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي، ففي الحصر معنى زائد عليه، وهو نفي ماعدا المذكور، وإنّما جاء هذا في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[3] للعلم بأنّ قائليه لا يعبدون غير الله تعالى؛ ولذا لم يطرد في بقية الآيات»[4].

ونجد إنّ -رشيد الخطيب- لم يتوسع بالقول في هذا الأسلوب وإنّما اكتفى ببعض الإشارات في أثناء تفسيره للآيات القرآنية الكريمة. فنجد رشيد الخطيب يقول شارحاً قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: «فالتقديم لغرض التخصيص»[5] ونجد أبو السعود يقول أيضاً: «وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص»[6] وقال ابن عطية: «وقدم المفعول على الفعل

---

(١) ينظر: الكتاب: ٣٤/١.

(٢) ينظر: الكشاف: ٣/١.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٤) الإتقان: ١٥٨/٣.

(٥) أولى ما قيل: ٤٦/١ ، وينظر: البيان القرآني في تفسير اولى ما قيل: ٦١.

(٦) إرشاد العقل السليم: ٩/١.

اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[2] قال الرشيد الخطيب: «التقديم لإظهار شدة الشناعة فيما فعلوا؛ إذ بالباطل آمنوا وبدين الله كفروا»[3].

وقال البيضاوي في معنى الاهتمام أو الاختصاص: «وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة»[4] وتبعه الآلوسي[5].

وقال الشوكاني: إنّ غرض التقديم هو الاختصاص: «وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص»[6] وهذا ما ذهب إليه أغلب العلماء[7].

ولهذا التقديم أشكال مختلفة في القرآن الكريم، منها ما يلي:

أولاً: تقديم المفعول به:

في النظم القرآني تتعدد صور تقديم المفعول به، فقد يتقدّم على الفاعل، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[8]. يقول عبد القاهـــر:

---

(١) المحرر الوجيز: ٦٤/١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.

(٣) ينظر: أولى ما قيل: ٤٨/٧.

(٤) أنوار التنزيل: ٣٢٤/٤.

(٥) ينظر: روح المعاني: ١٤/٢١؛ والبحر المديد: ٤٩٥/٥.

(٦) فتح القدير: ١١٦/١.

(٧) ينظر: البحر المحيط: ٣٣١/١؛ والتحرير والتنوير: ٤٤٢/١؛ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٧٢/١.

(٨) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

«تقديم اسم الله تعالى إنّما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشعون من هم، ويخبر بأنَّهم العلماء خاصة دون غيرهم. ولو أخّر ذكر اسم الله وقدّم (العلماء) فقيل: (إنّما يخشى العلماء الله) لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشِيّ من هو، والإخبار بأنَّه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذٍ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كأنّ يكون المعنى أنّ غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً، إلاّ أنّهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى، وهذا المعنى وإن كان قد جاء في التنزيل في غير هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1]. فليس هو الغرض في الآية، ولا اللفظ بمحتمل له البتة. ومن أجاز حملها عليه، كان قد أبطل فائدة التقديم، وسوى بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ وبين أن يقال: (إنّما يخشى العلماء الله)، وإذا سوى بينهما، لزمه أن يسوي بين، قولنا: (ما ضرب زيداً إلاّ عمرو) وبين: (ما ضرب عمرو إلاّ زيداً)، وذلك ما لا شبهة في امتناعه»[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾[3]. قال ابن عطية: «وقدم يعقوب على جهة تقديم الأهم»[4].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

(٤) المحرر الوجيز: ١/٢١٤.

وقال أبو حيان: «وقدم المفعول هنا على الفاعل؛ للاعتناء»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾[2]. قال الزمخشري: «فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال: (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أنّ الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفِطر المختلفة الأجناس، وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ كأنّه قال: إنّما يخشاه مثلك، ومن على صفتك: فمن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه»[3].

والمقصود بالعلماء في الآية الكريمة يوضحها أبو حيان: «هم الذين علموه بصفاته، وتوحيده، وما يجوز عليه وما يجب له، وما يستحيل عليه، فعظموه، وقدروه حق قدره، وخشوه حق خشيته، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقل كان آمناً»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[5]، فتقدم المفعول ﴿ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ ففصل بينه وبين الفعل (أخذ) إشعاراً بهذه المهلة الزمنية التي أمهل فيها قوم

---

(١) البحر المحيط: ٥٧٣/١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٧-٢٨.

(٣) الكشاف: ٦١١/٣.

(٤) البحر المحيط: ٢٩٧/٧-٢٩٨.

(٥) سورة هود، الآية: ٦٧.

صالح، قبل أن تأخذهم الصيحة، بكفرهم، فقد تركوا -كما يذكر صاحب الكشاف- ثلاثة أيام، إذ عقروا الناقة التي هي آية الله لهم يوم الأربعاء، وأهلكوا يوم السبت[1].

وذكر ابن عطية روي أنّ صالحاً عليه السلام قال لهم حين عقروها: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمر في الثاني، وتسود في الثالث، فلما كان كذلك تكفنوا في الأنطاع، واستعدوا للهلاك، وأخذهم صيحة، فيها من كلّ صوت مهول، صدعت قلوبهم، وأصابت كلّ من كان منهم في شرق الأرض وغربها إلاّ رجلاً كان في الحرم، فمنعه الحرم من ذلك ثم هلك بعدها[2].

ونلاحظ أيضاً قد يكون تقديم المفعول على الفعل والفاعل معاً، فإنّه يدل على التخصيص عند ابن الأثير فيقول: «فإنَّ في قولك: (زيداً ضربت) تخصيصاً به بالضرب دون غيره، وبخلاف ذلك قولك: (ضربت زيداً) لأنك إذا قدّمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أي مفعول شئت، بأن تقول: ضربت خالداً، أو بكراً، أو غيرهما، وإذا أخّرته لزم الاختصاص للمفعول»[3].

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾[4]. قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ في (ما) قولان:

أحدهما: -وهو الظاهر- أنها مفعول مقدّم للنسخ وهي شرطية جازمة له، والتقدير: أي شيء ننسخ، مثل قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾[5].

---

(١) الكشاف: ٤٠٨/٢.

(٢) المحرر الوجيز: ١٨٦/٣.

(٣) المثل السائر: ٣٥/٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

والثاني: أنها شرطية أيضاً جازمة للنسخ، ولكنها واقعة موقع المصدر و«من آية» هو المفعول به والتقدير: أي: نسخ ننسخ آية قاله أبو البقاء وغيره»[1]، فالسمين الحلبي رجّح الرأي الأول وهو تقديم المفعول به على فعله.

وقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2]. يقول عبد القاهر: «جملة المعنى ومحصوله أنّهم جعلوا الجن شركاء، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإنّ تقديم (الشركاء) يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنّه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا غير الجن، وإذا أخر فقيل: (جعلوا الجن شركاء لله) لم يفد ذلك، و لم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير (الشركاء) دليل عليه»[3].

وقد وجدنا أساليب بلاغية للتقديم والتأخير في تفسير الدر المصون للسمين الحلبي الذي كان تفسيراً زاخراً به. وهذه الأساليب هي:

---

(١) الدر المصون: ٣٣٤/١؛ وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١٠٢/١؛ والبحر المحيط: ٥١٣/١.

(٢) سورة الأنعام: ١٠١-١٠٢.

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٨٦-٢٨٧.

١- التقديم للاهتمام:

ذكر هذا النوع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[١] فقال السمين الحلبي: «﴿وَبِٱلْآخِرَةِ﴾ متعلق بيوقنون و﴿يُوقِنُونَ﴾ خبر عن ﴿هُمْ﴾ وقدّم المجرور للاهتمام»[٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[٣]. قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ هذه جملة مستأنفة، و﴿وَفِى ٱلنَّارِ﴾ متعلق بالخبر، وقُدّم للاهتمام به، ولأجل الفاصلة. وقال أبو البقاء: أي: وهم خالدون في النار»[٤].

وهذا ما ذكره أبو السعود والآلوسي[٥] وذكر الرازي غرض الحصر في هذا التقديم قائلاً: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ يفيد الحصر أي: هم فيها خالدون لا غيرهم»[٦]. وتبعه النيسابوري والشربيني[٧]. وذكر الشوكاني غرض التأكيد[٨].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤.

(٢) الدر المصون: ١/١٠٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٧.

(٤) الدر المصون: ٣/٤٥٣؛ وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢/٦٣٩.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/٥٠؛ وروح المعاني: ١٠/٩٥.

(٦) التفسير الكبير: ١٦/٨.

(٧) ينظر: غرائب القرآن: ٣/٤٤٢؛ وتفسير السراج المنير: ١/٤٦٩.

(٨) ينظر: فتح القدير: ٢/٤٩٩.

٢- التقديم للاختصاص:

أشار إلى هذا النوع عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[١]. قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾.. وقال الزمخشري: التقديم للاختصاص أي: لا يتيسر ذلك إلاّ على الله وحده»[٢].

قال أبو حيان: «تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني لا يتيسر مثل ذلك اليوم العظيم إلاّ على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن»[٣].

٣- التقديم للعناية:

جاء هذا النوع في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾[٤]. قال السمين الحلبي: «والخبر جار ومجرور بحرف (على) الدال على الاستعلاء المجازي في الوجوب وقُدّم الخبر اعتناءً به»[٥].

٤- التقديم لرعاية الفواصل:

قال السمين الحلبي: إنّ التقديم يأتي لرعاية الفواصل ورؤوس الآي كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[٦]. وقال السمين الحلبي: «والباء في (بها) متعلقة بخبر (ليس) وقُدّم على عاملها للفواصل»[٧].

---

(١) سورة ق، الآية: ٤٤.

(٢) الدر المصون: ١٨٢/٦؛ وينظر: الكشاف: ٣٩٦/٤.

(٣) البحر المحيط: ١٢٩/٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٥) الدر المصون: ٥٧٣/١.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

(٧) الدر المصون: ١١٧/٣٠.

ولم يذكر الزمخشري التقديم وإنّما اكتفى بتفسير الآية[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾[2].

قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متعلق بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: من أجلهم، وقدم لأجل الفواصل)[3]. وهذا ما ذكره ابن عادل[4].

ثانياً: تقديم المجرور:

في النظم الحكيم يوجد للمجرور صور عديدة لتقديمه منها:

١- تقديم المجرور على الفاعل فاصلاً بينه وبين الفعل:

نحو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5].

فإذا ما اقتضى السياق أن يأتي بالفاعل على أصله من التقديم جاء الأسلوب القرآني على الأصل دون عدول، نحو قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[6]. ولعل تلك المغايرة بين المجيء بالأصل في الآية الثانية والعدول عنه في الأولى ترجع إلى أنّ الرجل في آية القصص على قول ابن جماعة: «قصد نصح موسى عليه السلام وحده لما وجده والرجل في يس: قصد من أقصى القرية نصح الرسل ونصح قومه،

---

(١) ينظر: الكشاف: ٤٨٣/٣.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٩.

(٣) الدر المصون: ٤٩٥/٦.

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٢٢٣/٢٠.

(٥) سورة يس، الآية: ٢٠.

(٦) سورة القصص، الآية: ٢٠.

فكان أشد وأسرع داعية، فلذلك قدم قاصداً ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ لأنّه ظاهر صريح في قصده ذلك من أقصى المدينة»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[2]، فإنّ أصل الكلام (فأوجس موسى خيفةً في نفسه) فتقدّم الجار والمجرور والمفعول، وتأخر الفاعل عن موقعه، وأرجع الزركشي سبب التأخير هذا إلى رعاية الفاصلة[3]. ويبدو إنّه لم يقتنع بهذا التعليل، فعاد وأرجعه إلى سبب نفسي، وهو «أنّ النفس تتشوق لفاعل (أوجس) فإذا جاء بعد أن أخّر وقع بموقع»[4].

٢- تقديم المجرور على المفعول به:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] فإذا ما اقتضى السياق أن يأتي الكلام على أصله قدم المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[6].

يقول ابن الزبير: «إنّما قدم المجرور في قوله: (من قبلك رسلاً إلى قومهم) في سورة الروم لكان ضميره ﷺ. أمّا آية الرعد فموازن لها ومناسب ما تقدمها

---

(١) كشف المعاني: ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٧.

(٣) ينظر: البرهان: ٦٢/١.

(٤) المصدر السابق: ٦٢/١.

(٥) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾[1] فتأخّر الضمير في الآيتين للموازنة والتقابل، والثانية منهما محمولة على الأولى في رعي ما ذكر»[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] فجاء المجرور وهو الضمير في (عليه) متقدماً على المفعول (الرحمة) والأصل تأخيره. ولعل هذا التقديم يرجع في حقيقة الأمر إلى أنّ المقام الذي سيقت فيه الآية مقام تعجب من هؤلاء الكافرين، ومع ذلك إن سئلوا عن ملك السماوات والأرض، فلن يجيبوا إلاّ بإقرار الملك لله، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4]، فهم يعرفون هذه الحقيقة، ثم ينكرونها، فالعجب كلّ العجب من موقفهم هذا الذي يستحقون عليه أن يحيق بهم غضب الله وانتقامه، وعلى الرغم من ذلك فإنّه تعالى لا يبادرهم بغضبه، بل برحمته، ونعمه»[5].

٣- تقديم المجرور على الخبر:

نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٢.

(٢) ملاك التأويل: ٢/٧١٠-٧١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٩.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ٢٧٩.

أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[1]، فهنا تقديم معمول الخبر المجرور عليه، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[2]. ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أنّ الآية الأولى تتحدث عن أمور ظاهرة لا خفاء فيها، وهي التوسع في المجلس، والمراد مجلس الرسول ﷺ والمعنى يقول الزمخشري: توسعوا في جلوسكم، ولا تتضايقوا فيه، وقيل: هو المجلس من مجالس القتال[3]. ثم يأمر ﷻ أن ينهضوا للتوسعة على المقبلين، أو ينهضوا عن مجلس رسول الله إذا أصروا بالنهوض عنه[4].

أمّا الآية الثانية فكان الأمر فيها بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، وهذه أشياء منها ما يكون متعلّقاً بالقلب والنية من إخلاص في العبادة والطاعة، وهذا الإخلاص وما يتعلق به من أمور القلب لا يعلمه إلاّ الله؛ لذلك كان تسليط الدلالة في هذه الآية على لفظ (خبير) الذي يدل -كما يذكر الأصفهاني- على المعرفة ببواطن الأمور[5]. فهنا جاء الكلام على أصله، فجاء الخير في موضعه مقدّماً على معموله لتقع عليه الدلالة المرادة في هذه الآية[6].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

(٣) الكشاف: ٤/٤٩٢.

(٤) المصدر السابق: ٤/٤٩٢.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (خبر).

(٦) ينظر: المناسبة: ٢٩٢-٢٩٣.

٤- تقديم المجرور على المبتدأ:

نحو قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] فتقدم المجرور في ﴿بِيَدِكَ﴾ على المبتدأ (الخير) قال أبو حيان: «وتقديم بيدك يدل على الحصر، فدلّ على إنّ الأخير إلاّ بيده»[٢]. فجاء التقديم هنا؛ إشعاراً بدلالة الحصر، كما أشار إليها أبو حيان، إذ المقام مقام إبراز لقدرة الله وتعظيم هذه القدرة على كلّ شيء، فهو سبحانه الذي يؤتى الملك، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهذه القدرة التي يظهرها المقام هي التي يرد بها الله على من تعجّبوا من وعد رسوله للمسلمين أنّ الله سيفتح عليهم البلاد[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[٤]، فجاء لمجرور في ﴿فِيهَا﴾ مقدماً على المبتدأ ﴿غَوْلٌ﴾، وهو بخلاف ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٥]. يقول الزمخشري: «القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنّه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتاباً آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) البحر المحيط: ٤٣٨/٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٤٥-٤٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢.

خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنّه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة»[1].

ويقول ابن الأثير أيضاً: «يقتضي النفي أصلاً من غير تفضيل، وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه، وهو خمر الجنة، على غيرها من خمور الدنيا: أي: ليس فيها ما في غيرها من الغول، وهذا مثل قولنا: لا عيب في الدار، وقولنا: لا فيها عيب، فالأول نفي للعيب عن الدار فقط، والثاني تفضيل لها عن غيرها: أي: ليس فيها ما في غيرها من العيب»[2].

٥- تقديم المجرور على الصفة:

فيفصل بينها وبين موصوفها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[3]، وهذا بخلاف ما ورد من ترتيب الكلام على أصله قبل هذه الآية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4].

يعلق ابن الزبير على الآية الثانية فيقول: «لم يرد هناك غير صفة واحدة جعلت مع موصوفها كشيء واحد، وإن كان الوصف بموصول، والموصول يطول بصلته، إلاّ أنّ طوله بصلته لا يزيله عن تقديره باسم واحد، فمن حيث جعلت الصفة مع موصوفها كشيء واحد للحاجة إليها، وكونها مفردة،

---

(١) الكشاف: ١/٣٤-٣٥.

(٢) المثل السائر: ٢/٤٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.

قُرنت بموصوفها وتأخر المجرور، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾، صفتين فما زاد مع موصوفها كشيء واحد، قدم المجرور، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فوقع المجرور في كلّ من الآيتين على ما يجب، وعطفت الصفات بعضها على بعض لورودها غير صفة»[1].

ثالثاً: تقديم الظرف:

قد تتعدد أشكال تقديم الظرف في النظم الحكيم إلى أشكال عديدة نذكر منها ما يلي:

١- تقديم الظرف أو تأخيره، على اللفظ الواقع تمييزاً أو حالاً:

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[2]، فجاء الظرف مؤخراً عن لفظ ﴿شَهِيدًۢا﴾ الذي يمكن أن يحمل -كما يذكر الزجاج[3] والزمخشري[4]- على التمييز أو الحال، ثم نراه يأتي مقدّماً على اللفظ نفسه في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[5].

---

(١) ملاك التأويل: ٢/٨٧٦-٨٧٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٦.

(٣) معاني القرآن: ٣/٢٦١.

(٤) الكشاف: ٢/٦٩٥.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٢.

ولعل هذا الاختلاف بين الآيتين من مجيء الكلام على أصله في الآية الأولى والعدول عنه في الثانية يرجع -على حد قول ابن جماعة- إلى أنّه: «لما وصف ﴿شَهِيدًا﴾ بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ ناسب تأخيره لتتبع الصفة موصوفها ولا يحول بينهما حائل، وليس هنا ولا في أمثالها صفة لشهيد، فجاء على القياس في غير ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1]»[2].

٢- تقديم الظرف على الفعل والفاعل معاً:

كما في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3] فتقدم الظرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على الجملة الفعلية ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، والناظر في المقام الذي سيقت فيه هذه الآيات يدرك علة هذا التقديم، فقد نزلت -كما قال الزمخشري- عندما احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة، فشق على النبي ﷺ والمسلمين؛ لأنّ الفرس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت»[4].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

(٢) كشف المعاني: ٢٣٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢-٥.

(٤) الكشاف: ٤٦٦/٣؛ وينظر: المحرر الوجيز: ٣٢٧/٤-٣٢٩.

٣- تقديم الظرف على المبتدأ في الجملة الاسمية:

نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1] فقال تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ و لم يقل: (علم الساعة عنده) ليكون الكلام على أصله، بتقديم المبتدأ وتأخير الظرف.

ولعل هذا التقديم يرجع إلى أنّ الآية نزلت -فيما يذكره أبو حيان- عندما جاء رجل، وهو الحارث بن عمارة المحاربي إلى رسول الله؛ ليسأله، فقال: يا رسول الله أخبرني عن الساعة متى قيامها؟ وإني قد ألقيت حباتي في الأرض، وقد أبطأت عني السماء متى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت على ما في بطنها أذكر أم أنثى؟ وعلمت ما عملت أمس فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرفته، فأين أموت؟ فنزلت الآية»[2].

رابعاً: تقديم الخبر:

هذا الشكل من التقديم ليس له إلاّ صورة واحدة، وهي تقديم الخبر على المبتدأ، فحينئذٍ يدل على الاختصاص، أي: اختصاص الخبر بالمبتدأ دون غيره، وقد يقدم الخبر على المبتدأ في القرآن تحقيقاً لدلالة معينة، قال ابن الأثير: «فقولك: (قائم زيد) قد أثبت له القيام دون غيره، وقولك: (زيد قائم) أنت بالخيار في إثبات القيام له ونفيه عنه، بأن نقول: ضارب أو جالس، أو غير ذلك»[3]. وفي النظم القرآني نجد قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) البحر المحيط: ١٨٩/٧.

(٣) المثل السائر: ٣٥/٢.

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾[1] قال الزمخشري: «وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ ﴾ لأنّه كان أهم عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأنّ آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد»[2].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[3]، فآثر التعبير القرآني تقديم الخبر ﴿شَٰخِصَةٌ ﴾ على المبتدأ ﴿أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ و لم يأت الكلام على أصله (فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة) وقد أرجع ابن الأثير هذا التقديم إلى أمرين[4]، وتبعه العلوي في ذلك [5]:

أحدهما: تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها، فلو قال: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع (شاخصة) غيره، فيقول: حائرة ، أو مطموسة، أو غير ذلك، فلمّا قدم الضمير اختص الشخوص بالأبصار دون غيرها.

وأمّا **الثاني**: فإنّه لّما أراد أنّ الشخوص خاص بهم دون غيرهم دلّ عليه بتقديم الضمير أولاً ثم بصاحبه ثانياً، كأنّه قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم[6].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٢) الكشاف: ٣/٢٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٤) ينظر: المثل السائر: ٢/٣٨.

(٥) ينظر: الطراز: ٢٣٥.

(٦) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ٢٩٢؛ والمناسبة في القرآن: ٢٩٨-٢٩٩.